السلامُ المُرّ

هشام عيد - مصر

مضطربٌ منذ أتى، تلاحقه ذكرياتٌ قاسيةٌ ووجوهٌ داميةٌ، تحيطه أرواحٌ هائمة، صورٌ غير مكتملة لأشلاء ودماء، جريٌ وصُراخ، يلتفت يمينًا ويسارًا فلا يجد سوى الفراغ، يشعره الزحام بالوحدة أكثر، يتلاحم مع هذه الأرواح الغامضة، يحدّثها.. تحدّثه، يبادلها السباب والعِشق، يبدو في عيون الناس مجنونًا، شعرُه الأصفر وعيونُه الزُّرْق، بياض بشرتِه الشديد، غريب بين هؤلاء الناس!

جاء بينهم منذ خمسِ سنوات، انتقل من ضجيج الدمِ والمدافع إلى زحامهم ونظراتهم وسخرياتِهم التي لا تقلُّ قسوة عن عذاب انتظار الموت، منذ جاء وهو يشعرُ أنهم مزدحمون، مُحَمْلقون دائمًا، الأطفال يسخرون منه، من لونه الغريب ولَكْنَتِه الغريبة، وثأثأةِ لسانه التي خلَّفها الخوفُ ودويُّ المدافع، في عيونهم يبحث عن عينٍ مشفقةٍ تحتضنه، لكنها كلها ساخرة، غريبة، فليحْتَمِ بالجنون علَّه ينجو من بطشهم؛ فليحْتَمِ بالبعد أكثر.

اسمه "ماجد"، أبوه يعمل بالسياحة، في إحدى سفاراته إلى البوسنة التقى أمَّه، وحين قامت الحرب المرعبة التي شَنَّها الصرب على شعب البوسنة المسلم في حملة تطهير عرقيٍّ؛ نجا بزوجته وابنه وابنته الصغيرة، عائدًا إلى وطنه، كان الطفل في الثامنة؛ سنوات التَّشَكُّل، التشكل المضطرب من

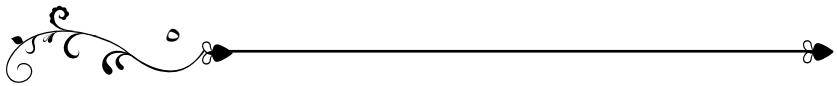

الحرب إلى الزحام.. العيون.. الوحدة.. الغربة.. بأي لغة يتحدث الصغير؟ أمُّه تتحدث اليوغوسلافية وبها يتحدّث أبوه في المنزل، لكنهم في الشارع يتحدثون بلغة مبهَمةٍ وأصواتٍ متداخلةٍ وعيونٍ جاحظةٍ في سخريةٍ تبعثر النفس، وتفقده التوازن.

ترسَّبُ الخوف بداخله من دوي الحرب والقتلى، الأذرع المتقطعة والرقاب المتناثرة -كان منذ قليل يحدّثه ثم هو أشلاءٌ ملقاةٌ على الطريق- ليس للخوف صورةٌ مصغرةٌ عنده كبقية الأطفال.. الخوف هنا من نوع جديد.. ربما أبسط لكنه يترك بداخِله نفس الإحساس الكبير بالرعب.. لم يَعُدْ للرعب حدود بداخله.. أبسط المخاوف تثيرُ أبشع الأحاسيس!

حَدَّثَهُ الأب عن الأرض الطيِّبةِ والناس البسطاء والهواء الذي يحمل المحبة.. عن الشمس حدَّثَهُ، عن جمال الروح حين تبدو في العيون، عن طيبةِ اللقاء والاحتواء بلا مقابل.. كل الأيادي تحتضن.. كل العيون ترحّب.. عن طينةٍ تُقبل في حنان أي زرع.. عن نيلٍ يكفي أن تشرب منه شَرْبَةً فتصير منهم.. حدَّثَهُ أبوه، لكن لم يمنحه الوقت الكافي.. ربَّما كان يجب أن يكون معه لفترة.. ربما كان يجب أن يكون هو أكبرَ قليلًا.. ربَّما كان هناك ما يجب أن يتجاوزه ليتحقَّقَ التمازج.

تركه الأب يتحرّكُ في الشارِع كما يشاء.. يريد أن يكسبه خبرة الالتحام، لكنه لم يؤهّله بما يكفي.. لم يبق معه.. لا يكفي أن يكونوا أبناءَ وطنِك ليكونوا أروع من في الأرض.. لَعَلَّ الأشياء تغيرت منذ بعدك الأخير.. ولعل الطفلَ كان يجب أن يتعاملَ مع من هو أكبر.. من يستطيع تجاوز تأتأتِه وبلاهةِ نظرته المغتربة.

حام حوله الصغار.. تربصوا به.. لم تكن في عينِ معظمِهم الرغبةُ في الصداقة بقدر ما كان فيها التساؤل.. بعضهم أراد أن يختبر قوته -على قدر القدرة على البطشِ سوف تكون المهابة-.. سرعان ما اكتشفوا أنه جبان.. مُرْتَعِب.. جسمه الكبير منحهم الرغبة أكثر.. بعد وقت قليلٍ كان لكل صبيٍّ قصة في ضربه.. كانت نبرةُ الفخر تملأ أصغرَهم حين يقصُّ طريقة طرحه أرضا!

كلما كبر كان الخوف يكبر بداخله والرغبة في الاختفاء تزيد.. ليته يمضي فلا يراه أحد.. ليته يصادق أحدًا فيحتمي به.. ليت أباه الذي يظنّه شهمًا يعرف أنه أضحوكة.

حاول الأب الذي اطمأن لعشيرته أن يساندَه على البعد.. ألحقه وأخته بالمدرسة حين وصلا.. نجحت تجربة أخته لأن مجالَها الضيق من البيت للمدرسة، سمح لها أن تتكوّن.. أن تنسى.. أما هو فلا.

انزوت الأمّ في بيتها.. تَشَتَّتَ القلبُ بين هنا وهناك، انتهت الحرب هناك باتفاقية "دايتون"الأشبه بالسلام المُرّ الذي يمنحُ المغتصبَ ما لا يستحق ويسلب الضحيةَ حقَّ الدفاع وساوى بينهما على طاولة التفاوض وعلى الأرض أيضًا.

بكت الأم يومها كما أمٍّ تبكي أبدًا.. لم تبك كذلك أثناء الإبادة.. كانت وأبوه مشغولَيْنِ بالهرب والرحيل وجمع الحطام.. قالت: "مُجَرّد أن يجلس "فلوبودان ميلوسوفيتش" مع العظيم "علي عزت بيجوفيتش"- عارٌ.. كيف فرضوا أن يجلس الإنسان مع الشيطان ليتفاوض!؟"

استعان بجهاز صغيرٍ يُخفيه داخل ذاته "ووكمان"يصرخ داخل أذنه باستمرار.. لا يستمع للأغاني لكنه يهرب فيه فيظن أن الناس منصرفةٌ عنه.. يتلاشى عيونَهم وصبيانَهم.. فضَّل المشي في الأماكن البعيدة؛ لأنهم يحسنون لمن يظنونه أجنبيًا.. استمع إلى كلماتٍ لطيفةٍ حبَّبَتْهُ .Hi . Welcome . Hello في البعد إلى أقصى مدى والجهاز في أذنه.. وشعره أصفر.. ليبتعد أكثر.. وحين يشعر بقُرْبِ اكتشافِ جبنِه.. وحين تصرخ داخله الرهبةُ وتضيق عليه نفسُه؛ كان يطيع رغبةً عارمةً في السباب والقذف وضرب الحجارة بقدمه.. يَسُبُّ الفراغ.. يشتم بأعلى صوته.. يضرب بكل قوة.. لعل أحدهم هناك يتربص به فيخاف بطشه!

أَخَذْتُه ذات مرةٍ من يديه إلى "شِلَّة"وطلبت منهم أن يصاحبوه.. إنه ابن الحتة.. فوجئت أن أحدهم حاول لكنه هو رَفَضَ.. وبدت على "ماجد" نظرة مستهترة وتركني ومضى.. شعرت من كلام الفتى بالصدق.. حكى لي أنه يمضي في الشوارعِ يَسُبُّ الهواء ويضرب الفراغ بقوة.. شعرت أن وضعه كأبله قد تأصَّلَ.. مضيت صامتًا.. شعرت أنه يَسْتَمْرِئُ الجنون.

لا تكفي الإشارة للقبيح بقبحه حتى يتغير!

ذات ليلةٍ في تجواله بغير هدى أخذته قدماه بعيدا.. هائمُ الروحِ والجهة.. يستمع بأقصى طاقته مختفيا داخل جهازه.. لم يوجه عينيه لأي عين.. ولكنه كان يَتَلَصَّصُ أثناء سيره النظرَ إلى أولئك الذين يتحدثون في بساطة وتكافؤ.. أحاديث عادية.. ليست عن أشياء عميقة ولا غامضة.. أشياء بسيطة.. حياة عادية.. مُتكافئة.. بلا سخرية.. يفهم الآن الكثيرَ من هذه اللغة.. ربما أكثر من لغتِه الأصلية.. فوجئ بنفسه يقترب من ثلاثةٍ في مثل سنِّه.. هل يبدأ سَبَّ

الهواء الآن.. أيحتمي بالجنون أم بكونه أجنبيا.. تَذَكَّرَ في هذه اللحظة جنديًّا صربيًّا يفتك بلا رحمة بوالدِ صديقٍ له.. أطلق النار بقسوة.. اخترقت الرصاصةُ رأسَه الأصلع.. فتفجرت الدماء وتاهت ملامحُ الوجه الذي ثبتتْ عليه نظرة استعطاف: "ارحمني أمام صغيري"!

لم يعد يمكن تحاشيهم.. اقتربوا منه.. أحاطوه بإحكام.. عيونُهم ثاقبة.. ابتسم ببلاهة.. ضحكوا وتبادلوا النظر..

دخلَ قائدُ الجيش الصّربيّ "سربيرينتسا"ضاحكًا وهو يؤَمِّنَ النساء والأطفال في خروجهم ثم أمَرَ جنوده بقتل ثمانية آلاف رجل ودفنهم في الوحل والحفر..

قال أحدُهم شيئًا فَهِمَ منه أنهم يريدون "الووكمان"وأشار الآخر بشفرةٍ في يده.. ودفعه الثالث بشراسة.. كانوا في منتهى التحفز.. قال: "ت ت ت تيجوا نسمع أ أ أغاني ك كلنا مع بعض".

ضربه أحدهم على وجهه فصمت دون مقاومة.. خلعه من أذنيه ومن حول حزامه بهلعٍ.. حَيَّرَتْهُ عيناه.. أين يستطيع أن يوجّهها.. شعر أن الشفرةَ طلقةُ جندي صربي.. انشغلوا عنه بفحص الجهاز.. عادت الأصوات المزدحمة.. جري.. بأقصى سرعته.. انطلق كالسهم.. بل كالخروف الذي يطاردُه السهم.. كأنما هو المذنب.. يجري بلا هوادة.. تحولت كلُّ الأرواح الهائمة إلى سهامٍ تطارده.. لعلهم ما يزالون يتبعونَه.. سيلحقون به لو توقّف لحظة.. سيضع

أحدهم الشفرةَ في عينيه.. جري.. جري.. بأقصى ما تستطيع الروح والقدمين..

عندما عرف أبوه احتضنَه بحنان.. في حضن أبيه.. فقط.. بكى بقوة..

في اليوم التالي.. استطاعَ أبوه أن يستردَّ "الووكمان".. عرضَ الضابطُ تأديبَهم، لكنَّه آثر السلام خشية أن يبطشوا بابنه فيما بعد!

أصبح الآن في السادسة عشرة.. تأصَّلت بلاهتُه لكنه اكتسب خبرةً قليلةً أتاحتْ له الحدَّ الأدنى من التعامل وانطفأ بريقُه لدى الأطفال.. ما يزال بغير صديق.. ولم تحدِّثه للآن فتاةٌ غيرُ أخته..

الخُطَى أصبحت مُبَطَّئَةً والأذرع متهدّلةً.. صار مُهَلْهَلَ الملابس.. أصبح صامتًا إلى أقصى درجة كأنّما أصيب بالخَرَس.. صمتًا إراديًّا أبلهَ لا يخترقه أبدا.. وصار قَذِرًا إلى حد ما.. بلا أدنى رغبة في المقاومة..

في "ميدان الحلميّة" الشهير.. يتجمع شباب كُثُر.. الإضاءة الكثيفة تمنحُهم مظهرًا مبهجًا ومتألقًا.. أصواتُهم صاخبةٌ وضحكاتُهم تبعث فى النفس الصبا.. بلا أي هموم..

غير بعيد.. في إحدى الزوايا الخافتة رأيتُه يقف وحده.. في أذنيه "الووكمان"يرقص.. يتمايل طربًا مبالغًا فيه.. كنت على الصف الآخر.. حييتُه من بعيد.. حياني دون أن يتوقّف عن الرقص.. مضيت قليلًا.. داهمتني رغبة في العودة والذهاب إليه..

اقتربت.. كان يرقص.. في عينيه بريق.. اقتربتُ أكثر.. كانت الدموع تملأ وجهَه.. وأنفه تسيل.. كان هذه المرة يختبئ في الرقص.. حتى لا يرى دموعَهُ أحد..